مجلة الجمعية العلمية الايرانية للغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد ۲۵، الشتاء ۱۳۹۱هـ.ش/۲۰۱۲ صص ۱-۲۲

السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي

جمال طالبي قره قشلاقي[1]*، عبدالغني ايرواني زاده[2]، نصرالله شاملي[3]

الملخّص:

دعبل الخزاعي أكبر شعراء الشيعة في العصر العباسي الأول وبداية العصر الثاني، ذلک العصر الذى عُرف بالثبات والاستقرار من الناحية السياسية، وكثرة المذاهب والنحل من الناحية الفكرية والعقيدية؛ نشأ الشاعر في الكوفة، و قد غذّت روحه من ينابيع الشيعة و انطبعت بطابعها؛ شبّ دعبل على الإحساس بالظلم و الاضطهاد، و لقّب بالشاعر الهجّاء الذي حمل خشبته على عاتقه منذ خمسين سنة باحثاً عمّن يصلبه عليها. تصدّى الشاعر في كثير من أشعاره للانحراف و الأوضاع السياسية الفاسدة، و قام بتنوير الرأى العام و توعية المجتمع العباسي. من خلال نظرتنا إلى أشعاره تبيّن أنّه استخدم في أدبه السياسي روحاً تهكّميةً ساخرة في هجاء الخلفاء العباسيين، و وزرائه و ولاته و نقد النظم السياسية القائمة، و استطاع أن يصوّر الحكم المتقلّب و الحالة القلقة و الانحطاط السائد و تبلبل الأمور و فوضى الأعمال في هذه الفترة.كما تبيّن أنّ الشاعر لم يقصد من هجائه الساخر، الإضحاک و الهزل، بل كانت سخريته ذات أهداف سياسية و اجتماعية بنّاءة. من هذا المنظور جاء هذا البحث لدراسة الجانب الساخر في شعره السياسي.

الكلمات الرئيسة: الأدب الشيعي، السخرية، الشعر السياسي، دعبل الخزاعي، العصر العباسي.

---

[1]- طالب الدكتوراه في اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان. jamal_talebii@yahoo.com

[2]- أستاذ مشارک في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان.

[3]- أستاذ مشارک في قسم اللغة العربية و آدابها بجامعة أصفهان.

المقدمة:

عرف العصر العباسي شاعراً لا يشقّ له غبار ولا يقارع في ميدان الهجاء والسخرية حيث كان ينفث النّار من لسانه الصارم، فهو دعبل الخزاعي الذي رفع لواء المعارضة السياسية في القرن الثاني في مواجهة العباسيين، و وقف موقف المعارضة الصّريحة للحزب العباسي، الأمر الذي أكسبه موقفاً من العباسيين، و من الحياة نفسها، فلم يكتف بالتّفجع لما أصاب العلويين من نكبات، و لم يقنع بتأكيد حقّهم، بل هجا بني العباس هجاء مرّاً (إسماعيل،١٩٧٥،٦٢). فكم من أناسٍ عاصروا دعبلاً وشهدوا ما شهد ولبثوا صامتين إمّا خوفاً و إمّا تملّقاً و إمّا استدراراً للحظوة، بينما ثار دعبل دون تقيّة (الحاوي،١٩٨٨،٤٧٧).

لعلّنا نظنّ بادئ ذي بدء أنّ دعبلاً شاعر تكثّفت الدراسات المتعلّقة بشعره، غير أنّنا لم نحصل على شئ كثير يدرس شعره خاصّة الزاوية التي تعني بما نحن بصدده، فأهمّ الدراسات التي يتناول شعره هي: مقالة لكاتبها الدكتور عبدالكريم الأشتر نشرتها مجلة الموقف الأدبي في عددها ٣٦٦ حيث درس فيها المديح السياسي و أتى بإشارات مختزلة حول الهجاء السياسي في شعره؛ و مقالة ثانية نشرته مجلة المنهاج في عددها الثامن عن الأستاذ علي البهادلي تحت عنوان "الهجاء السياسي في شعر دعبل الخزاعي"و أخيراً رسالة بعنوان"الرؤية و الأسلوب في شعر دعبل الخزاعي ـــ دراسة أسلوبيةـــ بجامعة الحاج لخضر.كانت هذه الدراسات حافزة لنا ليكون هذا البحث أكثر عمقاً في تجربة دعبل الساخرة. لذلك حاولنا أن نتقرّب إلى ساحة الشاعر الساخرة، والذي حاولنا في هذا البحث المتواضع تحقيقه ما يلي:

١ـــ ماهي الدوافع التي دفع الشاعر إلى استخدام أسلوب ساخر في شعره السياسي؟

٢ـــ ما هي الميزات التي طبعت بها السخرية السياسية في شعر دعبل؟

ستحاول هذه الدراسة الإيفاء بالإجابة المقنعة عن هذه الأسئلة علّها تسهم بشكل أو آخر في عمليّة إيضاح أبعاد السخرية السياسية عند دعبل الخزاعي.

١ـــ لماذا السخرية؟

إنّ الفترة التي يعيش فيها الشاعر والأديب قد تملي عليه استخدام لغةٍ معيّنة وأسلوب خاصّ في نتاجاته الأدبية، وهذا الأمر يتجلّى بشكل سافر في الأدب السياسي. نحن نلاحظ هذه الميزة بصفة خاصّة عند شعراء الشيعة في سبيل معارضتهم السياسية، فهولاء رغم الظروف الصعبة التي عاشوها استخدموا أشكالاً مختلفةً في الردّ على السلطة السائدة. إذا رجعنا إلى العصر

الأموي، هناک يلقانا الكميت بن زيد الأسدي شاعر الشيعة الكبير الذي قام بمعارضة الأمويين، ونرى النقّاد والباحثين يكادون يتّفقون على أنّ شعره يطبع بطابع الاحتجاج والاستدلال واستخدام المنطق في مواجهة خصومه (انظر:مغنية، ٢٠٠٩م،١٩٦). ولابدّ أن نعرف أنّ عقليّة العصر وبعدها عن الحضارة العميقة كانت من الدوافع الرئيسية وراء ذلک. حينما ندخل العصر العباسي تتغيّر عقليّة العصر فتتغير مظاهر الحياة، ويتطلّب ذلک شكلاً آخر من اللغة وأسلوباً جديداً من التعبير. لم يكن ذلک الشكل والأسلوب إلّا الفكاهة واستعمال طابع ساخر في الأدب. ومن هناک أصبحت السّخرية في العصر العباسي ظاهرة تلح علينا في الوقوف عليها ومتابعتها والتعرف إلى شعرائها الذين صاغوا لنا آراءهم وأفكارهم بأساليب ساخرة، فخرجت حية نابضة تعبر عن موقف رافض ومتمرد أحياناً، وعن مشكلات نفسية واجتماعية أحياناً أخرى. وقد شملت سخريتهم قضايا متعددة، نستطيع من خلال قراءتها أن ندخل إلى تناقضات شتى عاشها ذلك المجتمع وأثّرت فيه. عكست أصداء ذلک التطوّر في ساحة الحياة والتفكير في إبداعات الشعراء وأساليبهم التعبيرية، فنرى الهجاء يحدث فيه تطوّر جذريّ، إذ مال الشعراء إلى الهجاء الساخر الذي يستهدف إضحاک الناس على المهجوّ وسخريتهم منه (انظر: هدّارة، ١٩٦٣م،٤٣٣).

إنّ السخرية سلاح أوتيَ بعض الشعراء في مقاومة الظلم والجور، وإنّها تعدّ مظهراً من مظاهر المقاومة الشخصيّة والتمرد على الظلم، فدعبل الخزاعي بوصفه شاعراً متمرّداً لم يتخلّف في أسلوبه الشعريّ عن استخدام هذا السلاح، بل بلغ في شعره الساخر السياسي شأناً مميّزاً وترک بأسلوبه الساخر الناقد أثراً بارزاً في الأدب العربي، وكان رائداً في هذا الفنّ الشعريّ.

٣.السخرية السياسية قبل دعبل

لعب الشعر السياسي المطبوع بطابع السخرية دوراً خطيراً في ميدان السياسة بما يملک من تأثير وقدرة ساحرة على لفت الأنظار وجذب الانتباه نحو الظواهر البارزة في نظم الحكم الفاسدة أو أخلاق بعض الساسة وانحرافاتهم. يرى ابن رشيق أنّ السخرية لها تأثير شديد إذ يردّد أن التعريض أهجى من التصريح ويعلل ذلك "باتساع الظن في التعريض، وشدة تعلّق النفس به، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته"(ابن‌رشيق ١٩٠٧:٢١٧٢ــ١٧٣).

لم يعرف الأدب العربي الشعر السياسي الساخر في العصر العباسى، بل شهده في عصوره السابقة فنجد بعض الشعراء يسخرون سخرية سياسية من الخلفاء والوزراء وسوء مسلكهم كما نجده عند عتبة الأسدي يهجو معاوية:

مُعَـــاوِيَ إنّنـــا بَـــشَرٌ فَأَسْـــجَحْ فَلَـــسْنا بِالجبـــالِ وَلا الحَديـــدِ

أَكَلْـــتُم أرْضَـــنا وَجَـــذَذْتُمُونا فَهَـــلْ مِـــنْ قـــائمٍ أوْ مِـــنْ حَـــصِيدِ

فَهَبْنـــا أُمْـــه هَلَكَـــتْ ضِـــياعَاً يَزيـــدُ أميرُهـــا وَأَبُـــو يَزيـــدِ

أَتَطْمَـــعُ بِـــالخُلودِ إذا هَلَكْنـــا وَلَـــيس لَنَـــا وَلا لَـــكَ مِـــنْ خُلُـــودِ

ذَرُوا حَـــولَ الخِلافَـــةِ وَاْسْـــتَقِيمُوا وَتَـــــأمينَ الأراذِلِ وَالعَبِيـــــدِ

(البلاذري،لا، ٦٤:٥)

يسخر الشاعر فيما سبق من سياسة معاوية الظالمة مطالباً حقوق قبيلته السياسية كما يسخر من تقريب الأراذل والعبيد، ولاشكّ أنّه استوحى تلك الأبيات من الخلق العربي الذي لا يرتضي الذلّ والانقياد.

ونرى بشّاراً رغم انشغاله بلون آخر من الأدب لم ينسَ الخوض في ميدان السياسة بل ساهم فيه مساهمةً وحاول أن يدلي بآرائه عسى أن يكون رادعاً لممارساتٍ سياسيةٍ ودينيةٍ غير مقبولة والتحريض عليها بهدف القضاء عليها وتنقية المجتمع من آثارها السلبية إذ يسخر من الخليفة المهديّ وضياع الأمر من يده إلى يعقوب بن داود قائلاً:

بَنِـــي أُمَيَّـــةَ هُبُّـــوا طَـــالَ نَـــومُكُم إنّ الخليفَـــةَ يَعقـــوبُ بـــنُ داوُد

ضَاعَتْ خِلافَـتُكم يـا قَـومُ فالْتَمِـسُوا خَليفـــةَ اللهِ بـــينَ الـــزّقِ وَالعُـــودِ

(بشّار، ١٩٥٠،٣:٩٤)

يسخر بشّار من ضعف الخليفة لاستيلاء الوزير على مقاليد الدولة، وكأنّه يستنهض الأمويين لاستعادة الخلافة، وهذا لا يعني أنّه يتمنّى عودة الخلافة إلى الأمويين، بل يريد أن يبالغ في الإيلام والإيجاع للعباسيين حتّى يسيطر الخليفة على كلّ شئ.لا شكّ أنّ السخرية السياسية لدى هؤلاء الشعراء وقفت عند حدود ضيّقة ولم تتجاوز أبياتاً قليلة تأتي من حين إلى

آخر،كما أنّ شعرهم لم يبلغ إلى مرحلةٍ ناضجةٍ فنيّاً وبياناً، لكنّ دعبل فاق الشعراء العرب فى العصر العباسي من حيث أسلوبه الساخر وما عرف عنه من جرأة وصراحة التعبير.

٤.الهجاء الساخر في شعر دعبل

لعلّنا لانبعد عن الموضوعيّة إذا ادّعينا أنّ دعبلاً الخزاعي رائد السخرية السياسية في العصر العباسي الأول كما يرى أحد الباحثين (انظر: الشكعة،١٩٨٦م،٣٢٧) إذ هو شاعر متمرّد من طراز خاصّ استوعب مسؤوليته الاجتماعية و مكانته المتميزة بين شعراء الشيعة فأشار إلى مواضع الفساد والتزلّف مستخدماً أساليب مختلفة للتعبير. لعلّ الطابع الساخر أهمّ وأبرز هذه الأساليب في شعره السياسي إذ اتخذ هذا الشاعر الكبير السخرية منهجاً فكرياً ولغوياً أثّرت في مضامينه الشعرية وفي أسلوبه على السواء. كانت هناک أسباب و دوافع شتّى حمل الشاعر على أن يعطي لشعره طابعاً ساخراً.

نتسائل أنفسنا في بداية الحديث عمّا جعل دعبلاً لماذا يلجأ إلى السخرية في شعره السياسي؟

و الردّ أنّ السخرية السياسية عند دعبل لم تكن من طبعه وفطرته كما ظنّ البعض، بل كان مكتسباً مستمدّاً من بيئته الفاسدة التي أوحت له بضرورة النقد الهادف لإصلاح المجتمع وتقويم اعوجاجه،لأنّه كان كارهاً للجور والفساد. إنّه لم يكن يتكيّف مع مجتمعه بما شعر فيه من فساد واضطهاد، ممّا دفعه إلى التضادّ والمعارضة، فعبّر عن شعوره ذلک تعبيراً عنيفاً وانتقد فساد عصره أعنف نقدٍ وسخر منه أعظم سخرية.

كان عصر دعبل يطغى بالفوضى والاضطراب، والصراع والمنازعات من الناحية السياسية للاستيلاء على الخلافة، وبالظلم والجور والاستبداد على محبِّي أهل البيت (ع). وما كان لدعبل إزاء هذه الأمور إلّا أن يلعب دوره الرسالي في معارضة النظام السياسي الفاسد، فنرى أنّه أحسّ أنّ السخرية سلاح تتمتّع بميزة هامّة وهى سرعة انتشارها بين طبقات المجتمع المختلفة، فلذلک جَنَحَ إلى طابع ساخر حتّى يؤثر شعره في المتلقّين وينتشر بسرعة بالغة في الآفاق.

كان تشيّع دعبل الخزاعي وإيمانه بآل البيت عليهم السّلام أهمّ البواعث باعتقادنا إذ حمله على المعارضة بشكلٍ لاذع، ومن جرّاء ذلک قام بالدفاع عن أحقيّتهم في تولّي الخلافة وإدارة شؤون المجتمع. لعلّ ما ذكرنا كان من أهمّ البواعث التي دفع الشاعر إلى السخرية السياسية في شعره.

٤-١.أسلوب دعبل في شعره السياسي

استخدم دعبل الخزاعي في شعره السياسي الساخر أساليب شتّى تبدّت للدارس في الأطر التالية:

٤-١-١.السخرية

تعدّ السخرية من أبرز ملامح التحول في الموقف الشعرى عند الشعراء العباسيين، فالصدام بين هؤلاء الشعراء ومجتمعاتهم وتقاليد الحياة في عصورهم وصل حد الرفض والإنكار والثورة أحياناً (انظر:عطوان،١٩٧٠م، ٩-٣٣).وهذا عائد إلى الظروف التي غيّرت وجه المجتمع ومنحته شكله الجديد لما نشأ من صراع سياسي وآخر شعوبي واضطراب في مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ثم تطور الحياة الفكرية والعقلية (انظر:العشماوي،١٩٨١م، ١٢٨).

إنّ دعبلاً بوصفه شاعراً عاش في الفترة العباسية لميتخلّف عن مواكبة هذا الفنّ الشعري المؤثر جدّاً، بل استخدم السخرية في جوانب مختلفة من شعره خاصة في شعره السياسي؛ فجاءت السخرية عنده نتيجة للصراع الموجود بين عالمه الداخلي وبين قوّة سياسية كان يرفضها ويقاوم إزاءها. يرى بعض الباحثين أنّ الشاعر قد يلجأ إلى السخرية عندما لا يكون قادراً على إبراز غضبه، فتصبح السخرية ملاذاً نفسياً له فنراه يقول إنّ "الشعراء يلجأون إلى استخدام الأسلوب الساخر نتيجة لعوامل متعددة لعل أهمها الخوف من السلطة الحاكمة"(محمدالحوفي، ١٥). إنّنا حين ندرس حياة دعبل ونسمع كلمته المشهورة التي يقول:"أحمل خشبتي منذ خمسين سنة على عاتقي ولا أجد أحداً يصلبني عليها،"سرعان ما ندرک بوضوح أنّ السبب في لجوءه إلى السخرية لم يكن خوفه من السلطات الحاكمة بل يعود إلى أنّ الشاعر أراد بهذا أن يقارع الحكومة العباسية الزائفة، و يهيّئ الأجواء حتّى ينتشر شعره السياسي أكثر فأكثر، لأنّ الكلام إذا امتزج بالسخرية يتعلّق بالنفس بسرعةٍ بالغة ويبقى أمداً طويلاً.

كان هارون الرشيد أوّل خليفة من خلفاء بني العباس سخر منه دعبل، فلمّا شعر أنّ الرشيد يحاول اجتذاب الشعراء والأدباء لدعم سلطته وتأييد نظريته الوراثية في الخلافة من جانب، وليكون بعيداً عن خصوم الخلافة من جانب آخر، سرعان ما انقلب وكشف حقيقة خطّته بقوله:

وَعاثَتْ بَنــو العبّــاسِ في الــدّينِ عَيْثَــةً تَحَكَّـــمَ فيـــه ظـــالِمٌ وظَـــنينُ

وسَـــمَّوا رَشِـــيداً لَـــيسَ فِـــيهِم لِرُشْـــدِهِ وَهـــا ذَاکَ مَـــأمُونٌ وَذاکَ أمِـــينُ

فَمَـــا قُبِلَـــتْ بالرُّشْـــدِ مِـــنْهُم رِعايَـــةٌ وَلا لِـــــــوَلِيٍّ بِالأمانَـــــــةِ دِيـــــــنُ

رَشِـــــــــــيدُهُم غَـــــــــــاوٍ وَ لِهـــذَا رَزايـــا دُونَ ذلـــكَ مُجُـــونُ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٨٩)

وأيّ سخريةٍ أبلغ وأقسى من هذا؟ فالشاعر لا يسخر في الأبيات السابقة من قضية عدم النضج السياسى عند هارون الرشيد فقط، بل تتعدى سخريته إلى الوضع الذي آلت إليه الأمور، فالخليفة ضالٌّ وكذلک ابناه، وهما يخونان الدين الذي هو أمانة بأيديهما.كل ذلک أدّى إلى تدهور الأمور في البلاده، وأين الشعب من كل ذلک؟ الشعب في حالة ضياع وظلم، فكيف يستطيع هذا الشعب أن يشكو أمره وأن يبلغ طلبه، ولّما يبلغ خليفته ووليّ عهده رشده بعد. فكانت هذه السخرية سلاحاً بيد الشاعر في محاربة الظلم والفساد ومقاومة الجور والطغيان أو على الأقل كانت تلفت الحكام إلى مثل هذه الأوضاع.

ومن الأحداث الخطيرة التي واجهها العصر العباسي ولفتت انتباه المؤرخين خلافة ابراهيم بن المهدي، فبعد أن قتل الأمين في بغداد كان المأمون لا يزال في مدينة طوس التي اتخذها عاصمة له فرشّحت حاشية القصر في بغداد عمّ المأمون المغنّي المشهور إبراهيم بن المهديّ للخلافة. نرى دعبل يصوّر هذه الحادثة في شعره قائلاً:

نَعَـــرَ ابـــنُ شَـــكْلَةَ بِـــالعِراقِ وَأهْلِـــهِ فَهَفَـــا إلَيـــهِ كُـــلُّ أطْلَـــسَ مَـــائِقِ

إنْ كـــانَ ابْـــرَاهيمُ مُـــضْطَلِعاً بَهـــا فلْتَـــصْلُحَنْ مِـــنْ بَعْـــدِهِ لُمخَـــارِقِ

وَلْتَـــصْلُحَنْ مِـــنْ بَعـــدِ ذَلـــکَ لِزَلْـــزلٍ ولْتَـــصْلُحَنْ مِـــنْ بَعـــدِهِ لِلْمَـــارِقِ

أنّـــى يَكُـــونُ وَلَـــيسَ ذَاکَ بِكـــائِنٍ يَـــرِثُ الخِلافَـــةَ فَاسِـــقٌ عَـــنْ فَاسِـــقِ

(المصدر نفسه،٢٤٤)

هنا هاجم دعبل كُلّ من بايع إبراهيم، واتّهمهم بالحماقة والبلادة، وأنكر عليهم تسليم الخلافة للفاسق. أمّا البيتان الأخيران فهما فى بيتا الهزء و السخرية؛ لأنّ الشاعر يعتقد أنّ الخلافة إذا صحّت لإبراهيم، فولاية العهد تكون لمخارق وتصلح فيما بعد لزلزل والمارق وكلّهم من مغني ذلك العصر. ولا شكّ أنّ دعبلاً قد استمدّ جرأته من تشيّعه وحبّه لآل البيت عليهم السّلام

وهذا الأمر دافع أساسي وراء هذه السخرية. لم يكن دعبل من وراء الأبيات السابقة يهدف إلى التندّر وإبراز العيوب للتشفّي فقط، وإنّما هى سخريّة بنّاءة بأسلوب ترفّع عن سطحيّة العوام، و وسيلة سلكها الشاعر ليصل إلى هدف أسمى وأنبل من مجرّد إثارة الضحک.

ونرى دعبلاً يتناول تلک المسألة في مقطوعة أخرى، وكأنّه يريد أن يحطّم هيبة الخلافة العباسية ويقرنها بالعبث والفسق والانحلال، ويحيل خلافة بني العباس التي زعموا أنّها جاءت لنصرة الدين خلافةً كتابها آلات اللهو واللعب:

يـــا مَعْـــشَرَ الأجْنَـــادِ لاتَقْنَطُـــوا ... وَ ٱرْضَـــوا بِمَـــا كَـــانَ وَلا تَـــسْخَطُوا

فَـــسَوْفَ تُعْطَـــوْنَ حُنَيْنِيَّـــةً ... يَلْتَـــذُّها الأمْـــرَدُ وَالأشْـــمَطُ

وَالمعْبَـــدِيّاتُ لِقُـــوّادِكم ... لا تَـــدْخُلُ الكَـــيْسَ وَلاتُـــرْبَطُ

وَهَكَـــذا يَـــرْزُقُ أصْـــحَابَهُ ... خَلِيفَـــةٌ مُـــصْحَفُهُ البَـــرْبَطُ

قَـــدْ خَـــتَمَ الـــصِّكَّ بِـــأرْزاقِكُم ... وَصَـــحَّحَ العَـــزْمَ فَلَـــمْ تُغْمِطُـــوا

بَيْعَـــةُ ابْـــراهِيمَ مَـــشْؤُومَةٌ ... تُقْتَـــلُ فِيهـــا الخَلْـــقُ أوْ تُقْحَـــطُ

(المصدر نفسه، ٢١٩)

تعدّ هذه الأبيات من أجمل سخريات دعبل السياسية اللاذعة حيث صوّر الجنود والنّاس يطالبون رواتبهم من الخليفة المغنّي (ابراهيم بن المهديّ) قبل أن يتنازل عن الخلافة للمأمون. أصيبت الدولة ـــ على أساس ما ذكرته المصادر التاريخية ـــ زمن خلافته بعجزٍ مالي فاجتمع الناس والجنود والضباط أمام القصر وهم يطلبون رواتبهم، وظهر مندوب الخليفة قائلاً لهم إن الخليفة ليس عنده مال يدفعه لكم. فالشاعر أراد أن يقول إن الذين اجتمعوا قد رضوا بأن يغنّي الخليفة لهم بدلاً من أن يدفع لهم رواتبهم. وقد ركّز الشاعر في الأبيات السابقة على المفارقة البارزة. و"ما من شكّ في أن للصورة الفنية الساخرة في شعر دعبل قيمة وهدفاً فلم تكن حشواً ولا هزلاً خالصاً، بل كانت تساعد على تجديد النشاط وتوليد الشعور السليم و إزالة الانقباض و تجديد الراحة وتزيل التوتر والانقباض وتشرح الصدور وتقوّم الأخلاق، تحافظ على التقاليد وأوضاع المجتمع وتصحيح الإعوجاج وتربي ملكة النقد وتوقظ التنبه إلى الأخطاء

وتجسيم النقائض ليضحک الناس من کلّ ما يلحظون فيه مخالفة للمألوف" (محمد عويصة،١٩٩٣م،١٧٧).

بدأت سيطرة الأتراک على زمام الأمور منذ بداية خلافة المعتصم وهؤلاء. على ما ذکرت المصادر التاريخية ـــ عاثوا في البلاد عيثاً، فنرى دعبلاً لم يسکت أمام هذا الأمر بل نظم أشعاراً کثيرة فيه. لعلّ ما نذکره أصدق وصف لتلک الحالة التعسة التي مرّ بها الخلفاء العباسيون، فنرى الشاعر يشير في قصيدة له تبلغ اثنى عشر بيتاً إلى ما بيّناه سابقاً. يقول:

لَقَدْ ضَاعَ مُلْکُ النّاسِ إذْ سَاسَ مُلْکَهُم وَصِيفٌ وَأشْناسٌ وَقَدْ عَظُمَ الخَطْبُ

وَفَضْلُ بنُ مَروانٍ سَيَثْلَمُ ثلْمَةً يَظَلُّ لَها الإسْلامُ لَيسَ لَهُ شِعْبُ

وَهَمُّکَ تُرکِيٌّ عَليه مَهانَةٌ فأنتَ لَهُ أمٌّ وَأنتَ لَهُ أبُ

کأنّ الشاعر ينقل لنا صورة معبّرة عن أوضاع تلک الفترة، الفترة التي امتزجت بمعاناة الشعب، وکانت شاهداً على طغيان النظام والاستبداد الذي حوّل الحياة إلى جحيم. ولقد جعل من هذه السخريات لافتات مهتزّة تنبّه الأذهان إلى الأوضاع الفاسدة السائدة وتجدد مشاعر الکراهية للخلفاء وتشعل نار الغضب،کما أنّها تدلّ على تذمّر الشاعر من حال الحکم وتسلّط الأتراک على الخلافة وتسيير الخلفاء حسب أهوائهم، فلذلک يقول إنّ الناس ضاعت أمورهم وهذه لمأساة عظيمة. ونرى الشاعر يرسل إلى المعتصم مقطوعةً بعد خروجه من بغداد مغضباً وفيها نشعر السخرية بوضوح تامّ. اسمعه يقول:

بَغْدَادُ دَارُ المُلُوکِ کَانَتْ حَتّى دَهَاهَا الَّذِي دَهَاهَا[1]

ما غَابَ عَنْهَا سُرورُ مُلْکٍ عَادَ إلَى بَلْدَةٍ سِوَاهَا

لَيسَ سُرورٌ بِسُرَّ مَنْ رَأى بَلْ هِيَ بُؤسٌ لَمَن يَرَاهَا

عَجَّلَ رَبّي لَهَا خَرَابَاً بِرَغمِ أنْفِ الّذي ابْتَنَاهَا

(المصدرنفسه، ٣٠٧)

[1] ـــ دها: من الداهية أى المصيبة والشدّة. يريد أنّها أصيبت بالنّائبة وأصبحت خربة.

والأبيات بحدّ ذاتها تقرير نفسي يفصح عن دخيلة الشاعر وإحساسه المرير، كما أنّها صرخة احتجاج حادّة تعبّر عن معاناته على الأصعدة كافّة. وأحياناً نرى دعبلاً أخذ يصوغ سخريته السياسية في ثوبٍ جديد قديكون رمزياً يحمل كلّ مظاهر الاستخفاف والتحقير. لما مات المعتصم وتولّى الواثق الخلافة نرى الشاعر يصوّر فراغ الخلافة من معانيها كلّها، و إلى نفض الناس أيديهم منها وإدارة ظهورهم لها، وهو أمضّ ما بلغت سخريته السياسية من وضوح القصد مع كونه رمزيّاً. يقول الشاعر:

الحَمْدُ لِلّهِ لا صَبْرٌ وَلا جَلَدُ وَلا عَـــزاءٌ إذَا أهْـــلُ الـــبَلا رَقَـــدُوا

خَلِيفَةٌ ماتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أحَدُ وَآخَرُ قَـــامَ لَـــمْ يَفْـــرَحْ بِـــهِ أحَـــدُ

فَمَرَّ هذا وَالشُّؤمُ يَتْبَعُهُ وَقَـــامَ هَـــذا فَقَـــامَ الوَيْـــلُ وَالنّكَـــدُ

(المصدر نفسه ،١٦٨)

افتتح الشاعر أبياته بالشكر والحمدلله، على أن وافى المعتصم أجله، فلا صبر ولا جلد ولا عزاء، لأنّ من قضى نحبه من أهل البلاء والشرّ، فلا حزن على خليفة مات، ولا فرح على خليفة آت، فكلّهما رديف الشؤم والويل والنّكد. وفي تنكير كلمة "خليفة"ما يدلّ على استهزاء واستخفاف بالغ بالمعتصم وكذلک الأمر في كلمة "آخر"المقصود بها الخليفة الواثق. والنموذج الذى ذكرناه"يعد من قمّة الشعر الساخر الذي عرفته عصور الأدب بحيث يعدّ وثيقة لمهزلة حكم السلاطين الذين يموتون فلم يحزن عليهم أحد وينصبون فلم يفرح بهم أحد، حيث تظلّ أمثلة هذا الشعر الساخر تعبيراً عن الحقائق الإجتماعية التي تتحدث عن أصوات الرأى العام وتصوراتهم للسلاطين"(البستاني،١٤١٤،٥٢٥). وإنّا نستنبط ممّا سبق نقطتين هامتين، الأولى: ليس للسلطة العباسية شرعية دينية، لأنّها قامت على أساس الخديعة واُغتصبت السلطة من أصحابها الحقيقيين وهم أهل البيت عليهم السلام. والثانية: إن الحكومة لدى العباسيين لا تتمتع بميزة المقبولية عند جمهور الشعب، فما إن يموت خليفة حتى يأتي آخر، فلا جديد على مستوى التجديد السياسي حتّى أنّ العامّة من النّاس لا يأبهون بهذا التغيير، وهو تكرار يعكس حالة الضيق من العملية السياسية في هذا العصر، ويضيف دلالة الحسرة والتأسف على الوضع الذي آلت إليه مؤسسة الخلافة العباسية.

لما كان الخلفاء في العصر العباسى فاسدين وظالمين، فكان من الطبيعي أن يتسرّب السوء إلى

الوزراء والعمّال والكتّاب وينتشر بينهم. كان دعبل يرصد أعمال هؤلاء المنتمين إلى السلطة العباسية، فلذلک نراه لاحق كاتب المأمون أبا عبّاد وسفّهه، وجمع إلى فشله في عمله بشاعة في صورته إذ جعله هائجاً يجرّ السلاسل خلفه. يقول:

أوْلَـــى الأُمُـــورِ بِـــضَيْعَةٍ وَفَـــسَادٍ أمْـــرٌ يُـــدَبِّرُهُ أبُـــو عَبّـــادِ[1]

خَـــرِقٌ عَلَـــى جُلَـــسَائِهِ فَكـــأنَّهُم حَـــضَرُوا لِمَلْحَمَـــةٍ وَيَـــوْمِ جِلَـــادِ[2]

يَـــسْطُو عَلَـــى كتّابِـــهِ بِدَوَاتِـــهِ فَمُرمَّـــلٌ ومُـــضَمَّخٌ بِمِـــدَادِ[3]

وَكأنّـــهُ مِـــنْ دَيْـــرِ هِزْقِـــلَ مُفْلِـــتٌ حَـــرِدٌ يَجُـــرُّ سَلاسِـــلَ الأقْيَـــادِ

فَاشْـــدُدْ أمِـــيرَ المُـــؤمِنِينَ وِثَاقَـــهُ فَأصَـــحُّ مِنْـــهُ بَقِيّـــةُ الحـــدّادِ

(المصدرنفسه، ١٨١)

يقول الشاعر إنّ الأمور إذا كان مدبّرها أبا عباد، لاشك أنّها تنتهي إلى الفساد لأنّه ضعيف الرأى لايحسن عمله، والشاهد على ذلك سوء معاملته لجلسائه بحيث يشعرون كأنّهم حضروا في ساحة القتال، ثمّ شبّهه بوحش وثب على فريسته وجعلها ملطّخةً بدمائها، وقد جعله مجنوناً تخلّص من بيت المجانين حاملاً سلاسل القيد في رجليه.

ودعبل بهذه الأبيات يجرّد أبا عبّاد من الخصائص الإنسانيّة وما تتبع من تكاليف أمثال العقل والتفكير، ويتزله إلى مترلة الدوابّ بل أسفل منها. و"استطاع الشاعر في الوصول إلى غرضه من الهجاء أن يستخدم مجموعةً من الصور مثل: خرق على جلسائه، ملحمة ويوم جلاد يسطو بدواته، مضمخ بدم، كأنّه من دير هزقل مفلت، حرد يجرّ السلاسل، أشدد وثاقه"(محمد عويصة،١٥١) و جعله في موطن آخر أحد أركان الضعف في بيت الخلافة. اسمعه يقول:

---

[1] ــ الضيعة: الإهمال والفساد.

[2] ــ خَرِقٌ: أحمق. الملحمة: القتال. يوم الجلاد: يوم الشدّة والقوّة.

[3] ــ رمَّل الثوب: لطّخه بالدم. ضَمَخَ جسده وغيره بالطيب وغيره ــ ُ ضمخاً: لطخه به في كثرة.

مـــــــا لِلخَليفـــــــةِ عَيْـــــــبٌ إلّـــــــا أبـــــــو عَبّـــــــادِ

قِـــــــردٌ بَنُـــــــوهُ قُـــــــرودٌ تـــــــأوي إلـــــــى قـــــــرّادِ

هذا الاستخفاف وما صاحبه من الإحساس بالمرارة أو الحزن يقوم في صياغة السخرية مقام أشدّ الضحكات وقعاً، فالسخرية هنا لاذعة عنيفة. اعتاد الشاعر في سخريته السياسية على تجسيد القضايا الحيوية التي تهمّ جماهير عصره، واختار الأسلوب الساخر أداة لتصوير تلك الهموم، لأنه وجد في السخرية طريقاً إلى عقول شعبه، فهي الأكثر حفظاً، وبالتالي فإنها قابلةٌ للتأمل والإثارة وصولاً إلى التوعية والعمل على تغيير الواقع.

نرى أنّ السخرية السياسية عند دعبل إذا فقدت في بعض جوانبه كثيراً من جماليّتها بسبب خلوّها من الخيال إلّا أنّه استطاع أن يتدارك ذلك بصوره المكثّفة التي تخرج سخريته من الرتابة والجمود، وتعطيها الحيويّة و النشاط كما نلاحظ فيما سبق. قال دعبل يهجو الحسن بن وهب لّما ولى البريد:

أَلَـــا أَبْلِـــغْ أمـــيرَ المُـــؤمنِينَ مُحَمَّـــدَاً رِســـالَةَ نـــاءٍ عَـــنْ جَنَابَيْـــهِ شَـــاحِطِ[1]

بِأنَّ ابْنَ وَهْـــبٍ حِـــينَ يَـــشْحَجُ شَـــاحِجٌ يُمِـــرُّ عَلَـــى القِرْطَـــاسِ أَقْـــلامَ غَـــالِطِ[2]

أَحَـــبَّ بِغَـــالَ البُـــرْدِ حُبَّـــاً مُـــداخَلاً وَعَـــادَ إلـــى غِـــشْيانِها فِـــي المَـــرَابِطِ[3]

وَلَـــوْلا أمِـــيرُ المُـــؤمنِينَ لَأصْـــبَحَتْ أُيُـــورُ بِغَـــالِ البُـــرْدِ حَـــشْوَ الخَـــرائِطِ[4]

(دعبل،١٩٧٢، ٢٢٣)

٤-١-٢ــ التهديد

من المبادئ التي آمنت بها الشيعة هى التمرد على الظلم ومقارعة الظالمين، فقد انطلق دعبل من

---

[1]ــ الجناب: الناحية، وما قرُب من محلّة القوم.شحط: بعُد.

[2]ــ شحج البغل: صوّت.الشاحج: الحمار الوحشيّ. القرطاس: الصحيفة التي يكتب فيها. الغالط: الذي لم يعرف وجه الصواب.

[3]ــ البُرد: مفردها البريد، المسافة. المرابط: مفردها المَربط، موضع ربط الدّواب.

[4]ــ الخرائط: مفرده الخريطة، الكيس ونحوه.

هذا المبدأ إلى مقارعة الظلم، وكثيراً ما نراه يستخدم في سخريته السياسية التهديد كأسلوب لمواجهة السلطة العباسية، فحدث هذا الموقف بكثرة في وقوفه أمام المأمون، غير أنّ بعض الباحثين حاولوا التقليل من أهمية مواقف دعبل السياسية إبّان خلافته ووصفوه بالمبالغة في العفو، فلذلک ذكروا أنّ هذه الصفة "دفعت الشاعر إلى التطاول عليه والتّمادي في هجائه ونقده ومعارضته في جرأة مكشوفة في مواقف عديدة، كأنّما كان يضمن عفوه"(محمد عويصة،١٣).

ذكرت المصادر التاريخية أن المأمون لما صار خلیفةً، أمر بخلع السواد شعار العباسيين ولبس الخضرة شعار العلويين إرضاءً لهم، غير أنّ تطوّر الظروف في بغداد سرعان ما جعله يتراجع عن مواقفه إزاء الشيعة فتغيرت علاقته بالعلويين بتمزيق الخضرة شعار العلويين، فكان طبيعياً أن يتغير دعبل ويتخذ موقفاً مخالفاً لما كان من قبل. لذلک نراه يتفجّر غضباً ويصبّ حمم غضبه على المأمون قائلاً:

أيَسُومُني المأمونُ خطّةَ عاجزٍ أوَما رأى بالأمسِ رأسَ مُحمَّدِ[1]

تُوفِي عَلى هامِ الخَلائِفِ مِثلَما تُوفِي الجِبالُ عَلى رُؤوسِ القَردِ

(دعبل، ١٩٧٢، ١٧٥)

و في هذه الأبيات تتجلّى ثورة الشعر لدى دعبل في أسلوب تهكميّ ساخر يفضح حكم المأمون الذي لم يحقّق للشعب أيّ منجزٍ يذكر، بل كان أداة هدم وخراب، إلّا أنّ الحساب قادمٌ وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. وهو بعد ذكر الأبيات السابقة التي تشبه مقدمةً تمهّد الأرضية للتطرّق إلى الموضوع الرئيسي ينشد أبياتاً يدرس فيها العوامل التي ساعدت إلى تولّيه الخلافة، فيشتدّ غضبه فيقول مهدّداً:

إنّي مِن القَومِ الّذينَ سُيُوفُهم قَتَلَت أخَاکَ وشَرَّفَتْکَ بِمقعَدِ

[1] ــ رأس محمد: يعنى محمداً الأمين ابن زبيدة الذي حاربه طاهر بن الحسين. هام: مفردها هامة وهى رأس كلّ شئ. القردد: ما ارتفع من الأرض وغلظ.

رَفَعُــوا مَحَلَّــکَ بَعــدَ طُــولِ خُمُولَــةٍ وَاستَنْقَذُوکَ مِــنَ الَحــضيضِ الأوْهَــدِ

(المصدر نفسه،١٧۶)

إنّ الشاعر يريد أن يكشف عن أيدٍ لها المنة العظمى على المأمون في الوصول إلى الخلافة، فيذكّره بمكانته قبل الخلافة. غير أنّ نقطة هامّة مخبوءة وراء هذين البيتين، وهى أن الشاعر يهدده بأنه يسهل عليه أن يكرر الموقف الذي كان أخوه فيه، يعني يسهل عليه تغيير الوضع السائد. ونلاحظ بوضوح فيما سبق أنّ الشاعر استخدم لغةً ساخرة في هجائه السياسي ضدّ المأمون كما أنّه قرنه بالتّهديد والتهكم اللّذين يتلازمان مع الهجاء. و يبدو أنّ هذه الميزة تختص بدعبل الخزاعي، فكم من شعراء عاصروه وشهدوا ما شهده الشاعر من الظلم والطغيان والانحراف، ولكنّهم ظلّوا صامتين لم ينبسوا ببنت شفة إمّا خوفاً وإمّا اكتساباً للجاه والمقام. لم يكن الشاعر أمام المأمون مكتوف اليد، وإنّما أعلن بلغة مدويّة أنّ هذه الأوضاع لن تستمرّ فلذلک يحذر الخليفة من أن يتمادى في غيّه فيقول:

إنَّ التِّــــراتَ مُــــسهَّدٌ طُلّابُهــــا فَاکفُفْ لِعابَــکَ عَــن لِعــابِ الأســوَدِ[1]

لا تَحــسَبَنْ جَهلِــی کَحِلــمِ أبي فَمــا حِلــمُ المَــشایخِ مِثــلُ جَهــلِ الأمــرَدِ

(المصدر النفسه، ١٧۶)

ألسنا نجد في هذه الأبيات روح التحدى والإباء؟ "فطلّاب الثأر لا ينامون" كناية عن استعدادهم للانتقام والنيل من خصومهم ويحذر الخليفة أنّ ظلمه لا يعادل خطر الحية العظيمة، ويعرفه بأن حلم الكبار يختلف عن طيش الشباب وتمردهم متوسلاً بلون من المقابلة بين الجهل و الحلم و بين الشيخ و الأمرد.

۴ــ١ــ٣.استلهام واستدعاء التراث القرآني

لقد أصبح استلهام التراث واستدعاء الشخصيات القرآنية ظاهرة هامّة عند الشعراء الإسلاميين، ودعبل بوصفه شيعيّاً ممتازاً حاول قدر المستطاع أن يوظف التراث الديني في هجائه

---

[1] ــ التّرات: مفردها ترة، الثأر. الأسود: الحيّة العظيمة.

الساخر السياسي، فنراه قد اعتمد في تشكيل الصورة الشعرية على عناصر متعدّدة من التراث الديني في أشكاله المختلفة واغترف من معين الثقافة الإسلامية والقرآنية في نظمه السّاخر الذي اشتمل على جوانب معنوية وحسية، وجاء بعضه في إطار المقارنة التي تهبط بالمهجو، وتجعله الطّرف الناقص في حمل تلك الصفة، بينما في بعضه الآخر حمّل الشاعر المهجو الصفة الموظّفة، بغرض إثبات النقص عنده بطريقة الهزل و التلاعب. اتّخذ استدعاء التراث عند دعبل اتجاهين:

أ.الإتجاه الأول لفظيٌّ ومعنويٌّ، إذ يذكر الشاعر ألفاظاً و يستحضر بعض المعاني، فنراه يستحضر أصحاب الكهف وكلبهم أثناء استهزائه من المعتصم الخليفة الثامن عند العباسيين:

مُلُوكُ بَنِي العَبّاسِ فِـي الكُتُـبِ سَـبْعَةٌ وَلَمْ تَأتِنَـا عَـنْ ثَـامنٍ لَهُـم الكُتُـبُ

كَـذَلِكَ أهْـلُ الكَهْـفِ سَـبْعَةٌ كِـرامٌ إذَا عُـدُّوا وَثـامِنُهُم كَلْـبُ

وَإنّـي لَـأُعلِي كَلْـبَهُم عَنْـكَ رَفْعَـةً لِأَنَّـكَ ذُو ذَنْـبٍ وَلَـيسَ لَـهُ ذَنْـبٌ

كَأنّـكَ إذْ مُلِّكتَنـا لِـشَقائِنا عَجُوزٌ عَلَيهَا التّـاجُ وَالعِقْـدُ والإثْـبُ[1]

(دعبل، ١٩٧٢، ١٠٢)

لا شكّ أن هذه الأبيات مستوحاة من التراث القرآني، وقد أدّاها دعبل بصورةٍ فكاهية ظريفة زادت من جمال أسلوبها؛ وفي تشبيه الشاعر الخليفة بالكلب والعجوز دلالات تنمّ عن استياء عميق من العملية السياسية العباسية، ففي تشبيهه بالكلب نتلمس دلالة الخسّة والطمع في السلطة، وأما تشبيهه بالعجوز فيكشف عن عدم قدرة الخليفة على إدارة شؤون الحكومة ، ما يعني أنّ الخليفة يفتقد لشرطين رئيسين من شروط الخلافة اللازمة هما: الأمانة والقدرة.

فالشاعر يبدو في الأبيات السابقة ناقماً متأمّلاً المشهد السياسي، ومعبّراً عن قمّة المهازل السياسية التي آل إليها حكم العباسيين، إذ كيف يوضع الرجل غير المناسب في مكان لايتناسب وقدراته على خلافة الأمّة؟ الأمر الذي ينجم عنه الظلم والاستبداد، ومصادرة الحريّات،

[1] ــ الإثب: بردٌ يشقّ فتلبسه المرأة من غير جيب ولا كمّين.

وتكميم الأفواه وتضييع الأمانة.

ولقد وفّقَ الشاعر في توظيفه لقصّة أصحاب الكهف واستطاع أن يوجد معها علاقة مباشرة أقامها على التعليل. ولم يكن استلهام التراث عند الشاعر صدفةً بل كان كما يرى الدكتور البستاني هادفاً و"اتّساقاً مع أصحاب الكهف الذين كان ثامنهم كلبُهم، وهذا يعني أنّه انتخب من أقصوصة أهل الكهف ما يتناسب وهدفه "(البستاني،١٤١٤، ٥٢٣).

ب. أمّا الاتجاه الثاني من استدعاء التراث الديني جاء في إطار القصة القرآنية. فنرى دعبلاً الخزاعي يستعين بقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز التي راودته عن نفسها، فولّى هارباً إلى الباب، فقدّ قميصه من دُبر، وأراد من هذه القصّة أن يطعن في رجولة بني فضل. اسمعه يقول:

إذَا رَأَيْـــتَ بَنِـــي وَهَـــبٍ بِمَنْزِلَـــةٍ لَـــمْ تَـــدْرِ أَيُّهُـــم الأُنْثَـــى مِـــنَ الـــذَّكَرِ

قَمِـــيصُ أُنْثَـــاهُمُ يَنْقَـــدُّ مِـــنْ قُبُـــلٍ وَقُمْـــصُ ذُكْـــرَانِهِم تَنْقَـــدُّ مِـــنْ دُبُـــرِ

مُحَنَّكُـــونَ عَـــنِ الفَحْـــشَاءِ فِـــي صِـــغَرٍ مُحَنَّكُـــونَ عَـــنِ الفَحْـــشَاءِ فِـــي كِبَـــرِ[1]

مُحَنَّكُـــونَ وَلَـــمْ تُقْطَـــعْ تَمَـــائِمِهِم مَـــعَ الفَـــوَاطِمِ وَالـــدَّايَاتِ بِـــالكِبَرِ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٠٧)

ويأتي دعبل بصورة مختلفة الألوان والظّلال إذ رسم قصّةً استمدّ عناصره من الصور القرآنية ويبلغ عمقاً ودقة في البيتين الأخيرين، فيصل بمهجوّه إلى الحضيض، ويصرّح بلغة الاستهزاء والاستهتار. فالصورة هنا صورة إيحائية بعيدة عن الواقع، استعان فيها الشاعر بوسائل المبالغة والغلو للتركيز على عيوب المهجوّ. "فخرجت سخريته صورة بين مستويين خطابيين، لكن يبقى دعبل هو الذي يبتدع الأثر الأدبي في ذات القارئ أكثر من البناء الفني أو الظاهرة الأسلوبيّة، لأن ذاته أكثر بروزاً وحضوراً في نصوصه، فيبدو أحياناً متحكّماً بمفردات الموقف

[1]- المحنّك: الذي أحكمته التجارب، وحنكته الأمور: جعلته حكيماً. التمائم: مفرده تميمة،وهي عوذة تعلق على الصغار مخافة العين.

ودلالاته" (عيسى،٢٠٠٣،٧٢).

و هنا نلاحظ خطوط المؤثرات التراثية في تكوين ثقافة الشاعر، و أهميتها في تشكيل صورته الفنية. و الملاحظة الهامّة التي يجب أن ننتبه إليها هى أنّ الشاعر باستلهام و استدعاء هذه الشخصيات كموروث ديني قصد أن يكشف بعض حقائق و وقائع كثيراً ما اختفت وراء رداءٍ زائف، فأراد أن يظهر حقيقتها بطريقةٍ تلميحية بعيداً عن المباشرة و التقريرية.

٤ــ١ــ٤.الصورة الاستدلالية

من الأساليب الرائعة التي استخدمها دعبل في سخريته السياسية، اقترانها بالصور الاستدلالية، وإن لم يبلغ في قدرته وعمقه الدرجة التي عرفناها عند الكميت الأسدي شاعر الشيعة في العصر الأموي، هذا لايعني أنّ الشاعر لم يستطع أن يرسم صورةً منطقية، بل السبب يعود إلى أنّ باب الهجاء أضيق قلّما يحتاج إلى الاستدلال المنطقي، وعلى الرغم من ذلک حاول دعبل أن يأتي أحياناً بأدلّة منطقية وإن وقف عند حدود ضيّقة. يقول في هجاء ابراهيم بن المهدي عمّ المأمون عندما اختاره أهل بغداد خليفة لهم في حين كان المأمون خليفة لهم في مدينة طوس:

نَعَرَ ابنُ شَكْلَةَ بالعِراقِ وَأهْلِهِ ... فَهَفَا إلَيهِ كُلُّ أطْلَسَ مَائقِ

إنْ كانَ ابْرَاهيمُ مُضْطَلِعاً بَها ... فلْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعْدِهِ لُمخَارِقِ

وَلْتَصْلُحنْ مِنْ بَعدِ ذَلکَ لِزَلْزلٍ ... ولْتَصْلُحَنْ مِنْ بَعدِهِ لِلْمَارِقِ

أنّى يَكُونُ وَلَيسَ ذَاکَ بِكَائنٍ ... يَرِثُ الخِلافَةَ فَاسِقٌ عَنْ فَاسِقِ

(دعبل، ١٩٧٢، ٢٤٤)

يرى الشّاعر أنّ ابراهيم بن المهدي الذي دعا الخلافة لنفسه لايليق أن يكون خليفةً وهى لاتصلح له،لأنّه مغنٍّ لايعرف أصول الحكومة والإدارة. هنا يستهزئ الشاعر بالسلطة العباسية الزمنية التي انحطّ شأنه إلى درجةٍ يدّعي فيها مغنٍّ الخلافة. ثمّ يفترض دعبل ويقول: إذا كان الخلافة جديرةً بمغنٍّ فأولى أن تكون الخلافة بعده لمخارق و زلزل، و هما مغنّيتان مشهورتان في العصر العباسى، و هذا استدلال منطقي إلّا أنّه اُقترن بالسخرية وزادت من شدّته ولذعته.

و لا بدّ أن نعترف أنّ الشاعر هنا غلبت على شعره المباشرة والخطابية، وهذا أدّى إلى أن تفقد مقطوعته الكثير من جماليّتها. لقد لجأ دعبل هنا إلى خطاب جماهيري يستعرض الظروف السياسية السائدة و يعالج واقعها عبر أبيات قصيدته، فلذلك كان يهتم بالحدث أكثر من اهتمامه بالناحية الفنية،كما أنه كان يحاول لفت أنظار الأُمة الى حقيقة ما يدور في الساحة السياسية العباسية بأقصى درجات الوضوح. وكان من مواقفه البطولية التي استفاد من قوّته المنطقية والاستدلالية هجاؤه للرشيد حينما جاء المأمون بجثمان الإمام الرضا عليه السلام فدفنه بجوار أبيه، وقد سأل عن ذلك فقال: ليغفر الله لهارون بجواره للإمام الرضا فقال دعبل رادّاً عليه:

إِربَعْ بِطُــوسٍ عَلــى قَبْــرِ الزَّكــيِ بِهــا إنْ كُنْتَ تَرْبَعُ مِــنْ ديــنٍ عَلــى وتَــرِ[1]

قَبْرانِ فِي طُــوسَ خَــيرُ النّــاسِ كُلِّهِــم وَقَبْــرُ شَــرِّهِم هَــذا مِــنَ العِبَــرِ

ما ينفَع الرّجسُ مــن قــرب الزكــيِّ ولا عــــــــــــــــــلى الزكيِّ بِقُربِ

هَيهَاتَ كُلُّ ٱمْرِئٍ رَهْــنٌ بِمــا كَــسَبَتْ لَــهُ يَــداه فَخُــذْ مــا شِــئتَ أوْ فَــذَرِ

(مصدر النفسه، ١٩٧٢، ١٩٨)

يشير الشاعر في الأبيات السابقة إلى أنّ مدينة طوس تتضمّن قبرين اثنين هما قبر الإمام الرضا عليه السّلام وقبر هارون الرشيد، إلّا أنّه مفارقة كبيرة بينهما إذ أحدهما قبر خير النّاس كلّهم والآخر لشرّ النّاسِ. ثمّ يرى الشاعر هذا من عجائب الأمور ويقول: لاينفع الرشيد شيئاً باقترانه للإمام الرضا، كما أنّه لايضرّه شيئاً.

كما بيّنا آنفاً أنّ الشاعر قصد أن يقارن بين قبر الإمام الرضا عليه السلام و قبر هارون الرشيد، و نراه استخدم صوراً تضمينية واستدلالية في الحصول على غرضه الأصلي، أمّا الصورة التضمينية فتتمثّل في البيت الأخير: "هيهات كلّ امرئ رهن بما كسبت له يداه" حيث ضمّن الشاعر لفظاً ومعنى الآية القرآنية ﴿كلُّ ٱمْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ (الطور:٢١) وأمّا الصورة الاستدلالية فتتمثّل في قوله: "ما ينفع الرجس من قرب الزكيّ ـــ ولا على الزكيّ

[1] ـــ اربع: قِف. الوطر: الحاجة.

بقرب الرّجس من ضرر. ونرى أنّ الشاعر حصل على ما أراد تصويره ونجح لأنّ "نجاح هذه الصور يتجسّد في ركونها إلى الاستدلال القائم على أنّ تجاور قبرين يفترقان في هويّتهما إيجاباً وسلباً لا يعني تماثلهما من جانب، كما لا ضرر على ذلک من جانب آخر، وهو استدلال فنّي ممتع كلّ الإمتاع دون أدنى شکّ، مادام الهدف هو إبراز الحقيقة التي تشير إلى الفارقية بين الإمام عليه السّلام وسلطان الدّنيا".(البستاني، ١٤١٤، ٥٢٤).

٤ــ١ــ٥.الطابع القصصي

أضاف دعبل الخزاعي أسلوباً جديداً إلى سخريته السياسية وأدخلها في إطار قصصيٌّ وفي هذا الأسلوب" يتولى الشاعر نقل ما يجري بمفرده، و لا تخرج لغة الخطاب من زمامه، وهذا أسلوب تسجيلي تصويري" (محمد عويصة،١٩٩٣، ١٥٨). اسمعه يقول في هجاء ابن عمران:

أَتَيْــتُ ابْــنَ عِمْــرَانَ فِــي حَاجَــةٍ هُوِّينَــةِ الخَطْــبِ فَالتَاثَهــا

تَظِــلُّ جِيَــادِي عَلَــى بَابِــهِ تُــرُوثُ وَتَأكُــلُ أرْوَاثَهــا

غَــوَارِثَ تَــشْكُو إلــيَّ الخَلَــا أطَــالَ ابْــنُ عِمْــرانَ إغْرَاثَهــا

(دعبل، ١٩٧٢، ١٥٦)

يرى الشاعر أنّ ابن عمران إنسان يريد كلَّ شيءٍ لمصلحته، إذا كان شَبِعاً لايتذكر أحداً ولكنّه إذا أصيب بمكروه يتوقع مساعدةً من الآخرين وهو في ذروة البخل لايبالى بمن أصبح جائعاً إذ بلغ بخله إلى حدٍّ يشكو الحيوان منه وتضطرّ الجياد أن تأكل روثها، فما بال الإنسان الذي يقصده في أمرٍ ما؟ لن يجيب ابن عمران إلى طلبه بلا ريب. فصاغ دعبل سخريته في شكل قصّة، ومهّد لها بالحديث عن الحاجة والجياد والروث والخلا والشكوى وبالغ في عرْضها، واستخدم بعض عناصر فنّ القصّة في شعره مثل سرد الأحداث والشخصيّات وترتيب المشاهد المتتالية بحيث يشكل صورة تدلّ على قدرة الشاعر في إضفاء طابع قصصي على هجوه كما أنّها تدلّ على حساسية فنيّة مرهفة لديه. وقد نجح الشاعر في تحويل الصور الجزئية إلى لوحات كبرى كما أنّه نجح في خلق حركة داخلية بأسلوب سلس، وألفاظ بسيطة، وربما كانت هذه إحدى سمات السخرية عند الشاعر.

وأخيراً يجب أن نقول إن الخدمة الكبيرة التي قدّمها دعبل في هذه الفترة من تاريخ الإسلام هى أنّ سخريته السياسية تكشف للشعب الحقائق والأحداث بواقعية عميقة، وتجعل شعره نموذجاً من مظاهر المقاومة والتمرّد على الجور والمفاسد السياسية والاجتماعية، ومن هنا تأتي أهمية شعره وتفرده في الشعر العربى. (حافظ، ١٩٧٣م، ١٤١).

النتائج:

ـــ كانت السخرية السياسية في شعر دعبل الخزاعي تصبّ في مضمار دفاعه عن أهل البيت (عليهم السّلام) و في هجاء العباسيين، و هي مستمدّة من بيئته الفاسدة التي حملته إلى التّضاد والمعارضة، و لم تكن فطريّاً كما ظنّ بعض النّقاد.

ـــ إنّ عقليّة الحياة في تلك الفترة كانت أهمّ البواعث التي دفعت دعبلاً ليعطي شعره طابعاً ساخراً، وقد استغلّ الشاعر تلك الميزة أحسن استغلال للتركيز على مفاسد الحكومة، وقد ظهرت السخرية في شعره كتقنية أسلوبية ظاهرة تترجم مواقفه السياسية خير ترجمة، وهى وإن كان فيها تنفيس عن مشاعره إلّا أنّ هدفه الأساس هو إيقاظ المجتمع ليقف في وجه حكّامه الطّاغين.

ـــ اعتمد الشاعر في شعره الساخر السياسي على ركائز متعددة لإيصال غرضه من السخرية السياسية، فرأيناه يطرق باب التهديد حيناً، والاستدلال والاحتجاج حيناً آخر، كما أنّه اعتمد على الشكل القصصي بعض الأحيان.

ـــ فقدت السخرية السياسية عند دعبل كثيراً من جماليتها بسبب خلوّها من الخيال إلّا أنّه تدارک ذلک بصوره المكثّفة وأخرجه من الرتابة والجمود، فنجح في استثارة التهكّم والاستخفاف.

المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

١ـــ ابن برد، بشّار. **الديوان**، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٠م.

٢ــ إسماعيل، عزّالدين. **في الأدب العباسي ــ الرؤية والفنّ ــ** بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٥م.

٣ــ البستاني،محمود. **تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الاسلامي**، مجمع البحوث الاسلامية، الطبعة الأولى، مشهد،١٤١٤هـ.

٤ــ البلاذري، أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف**، تحقيق: محمد حميد الله. مصر: دار المعارف. د.ت.

٥ــ الحاوي، ايليا. **فنّ الهجاء وتطوره عند العرب**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٩٨م.

٦ــ الخزاعي، دعبل. **الديوان**، قدّم له: عبدالصاحب عمران الدجيلي، دار الكتاب العربي،الطبعة الثانية، بيروت،١٩٧٢م.

٧ــ الشكعة، مصطفى. **الشعر والشعراء في العصر العباسي**، دار العلم للملايين، بيروت،١٩٦٣م.

٨ــ العشماوي، محمد زكي. **موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي**، دار النهضة العربية، بيروت ،١٩٨١م.

٩ عطوان، حسين. **شعراء الشعب في العصر العباسي الأول**، طبعة جمعية عمّال المطابع التعاونية، عمان،١٩٧٠م٠

١٠ــ عيسى، عبدالخالق. **السخرية في الشعر العباسي القرنين الثاني والثالث**، رسالة دكتوراه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣م.

١٠ــ القيرواني، أبوعلى الحسن بن رشيق. **العمدة في صناعة الشعر ونقده**،نشر مكتبة الخانجي،القاهرة، ١٩٠٧م.

١١ــ محمد الحوفي، أحمد. **الفكاهة في الأدب العربي وبعض دلالاتها**،طبعة جامعة أم درمان الإسلامية، ١٩٦٧م.

١٢ــ محمد عويصة، محمد. **دعبل بن علي الخزاعي (الصورة الفنية في شعره)** دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت،١٩٩٣م.

١٣ــ مغنية، حبيب. **الشعر السياسي من وفاة الرسول إلى نهاية العصر الأموي**، دار البحار، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٩م.

١٤ــ هدارة، محمد مصطفى. **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجرى**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

طنز سیاسی در شعر دعبل خزاعی

جمال طالبی قره قشلاقی[۱]، عبدالغنی ایروانی‌زاده[۲]، نصرالله شاملی[۳]

چکیده

دعبل خزاعی بزرگ‌ترین شاعر شیعه در دوره عباسی اول و آغاز دوره دوم به شمار می‌رود، دوره‌ای که از نظر سیاسی، به استقرار ثبات و آرامش، و از نظر فکری و مذهبی به کثرت مذاهب و عقائد معروف بود. دعبل در کوفه زاده شد و از سرچشمه تعالیم شیعه بهره برده و روحش بدان سرشته گشت. ظلم وستم را از همان آغاز احساس کرد و ملقّب به شاعر هجایی شد که چوبه دارش را پنجاه سال به دوش کشید و کسی را جست‌وجو می کرد که تنش را بالای آن ببرد. این شاعر در بسیاری از اشعار خود به مقابله با انحراف و اوضاع سیاسی فاسد پرداخته و در بیداری افکار عمومی جامعه عباسی نقش مهمی ایفا کرد. در بررسی اشعار دعبل با رویکرد سیاسی مشخص شد که او در هجو خلفا و وزرا و والیان حکومت عباسی ونقد اوضاع سیاسی طنز را دستمایه خود قرار داده و بواسطه آن توانسته حکومت عباسیان و اوضاع واحوال پریشان آن، و انحطاط و هرج ومرج موجود در این دوره تاریخی را به تصویر کشد. با دقت در اشعار سیاسی دعبل با رویکرد مورد اشاره مشخص شد که قصد وی طنز صرف به منظور خنداندن مردم نبوده، بلکه از این کار اهداف سیاسی و اجتماعی سازنده‌ای داشته است. این مقاله به بررسی رویکرد طنز در شعر سیاسی دعبل پرداخته است.

کلید واژه‌ها: ادبیات شیعه، طنز، شعر سیاسی، دعبل خزاعی، عصر عباسی.

---

[1]. دانشجوی دکترای زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

[2]. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان

[3]. دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه اصفهان